وائل عبد الرحيم..

(2) عودة العمّة

طيلة عمري وأنا أكره عمتي!

أعرفكم بنفسي أولًا..

أنا حامد عطوة سليمان، ابن عطوة سليمان أشهر جزّاري المدبح، عمري خمسة عشر عامًا، وأدرس بالصف الثاني الثانوي؛ حيث حرص والدي على تعليمي لئَلّا أكون جاهلًا مثله، حسب قوله.

أعيش أنا وأبي وأمي وعمّتي في بيت كبير يطلّ على المدبح الذي يمتلك به والدي المعلّم عطوة عدّةَ محال كبيرة للجِزَارة، أكبرها وأشهرها ذلك الذي يحتل الطابق الأول بالكامل من منزلنا الكبير.

كانت عمتي غير متزوجة بالرغم من سنها الكبير، والواقع لم أندهش من هذا؛فهي بالإضافة لدمامة وجهها، وأيضًا لحجمها الضخم الذي يجعلها أشبه بثور ضخم من تلك الثيران التي يأتي بها أبي ليدبحها بمحله، فقَد كانت سيئة الخُلُق لا يسلم أحد أبدًا من لسانها السليط الذي لا يراعي اعتبارًا لأية حدود،حتى أخاها –والدي- كان لا يسلم من سوء خُلُقها، بالإضافة إلى أمي السيدة الطيبة الهادئة التي تكرّرَت مشاجرات عمتي معها بسبب وبدون سبب، ومهما تحاول أمي أن تتجنبها ولا تزعجها تذهب محاولاتها سُدًى، حيث تشعر وكأن عمتي هي من تحاول استفزازها عمدًا.

وبطبيعة الحال لم أسلم أنا أيضًا من سوء خلقها، بل في الواقع كنت أكثر من تمارس عليهم عمّتي تسلطّها بحكم سني ووضعي بالنسبة إليها؛ فكانت دائمة الإهانة والضرب لي مع سبّي بأبشع الألفاظ

وأشنعها، ولا يُثنِيها عن هذا محاولات أبي وأمي لإيقافها؛ مما يؤدى لمزيد من المشاجرات بين ثلاثتهم.

ولقد سمعت والدي كثيرًا وهو يشتكي لأمي من عمتي قائلًا أنه لا يستطيع طردها لأنها تمتلك نصف المنزل بوصية من والده قبل وفاته، وأن علينا الاحتمال حتى يأتي من يتزوجها ويأخذها لتعيش معه ويشتري منها والدها نصف المنزل الذي ترفض بيعه له حتى الآن.

واستمر الحال على هذا الوضع السيئ حتى جاء ذلك اليوم الذي لن أنساه أبدًا.. كنت أجلس في محل جزارة والدي أسفل المنزل، وقد خرج هو مع عُمّاله للإتيان بكمية جديدة من اللحوم من مجزَرِه الكبير، وفوجئت بعمتي تدخل على المحل وتطلب مني بصوتها الخشن الذي يشبه أصوات المصارعين بأن أصعد معها لتنظيف شقتها، ولكني رفضتُ؛ لأني أجلس في المحل وحيدًا وقد طلب مني والدي أن أرعَى المحل في غيابه.

ولكن عمتي أصرّت على اصطحابي؛ فأصررتُ أكثر على الرفض؛ ففوجئت بها تدفعني دفعة قوية لأسقط أرضًا وتصطدم رأسي بالحائط فأُجرَح وتبدأ الدماء تسيل من رأسي مع دُوَار عنيف يكتنفني.

حدث هذا مع دخول والدي للمحل ومشاهدته ما حدث؛ فانقلبت سحنته على نحو رهيب وبدا الغضب على ملامحه لدرجة أنه تجاهلني تمامًا وهو يتقدم من عمتي سابًّا إياها بأبشع الألفاظ، ثم ينهال عليها ضربًا وركلًا وهي تصرخ غير قادرة على الإفلات من ثورة غضبه العارمة، حتى سقطت بداخل أحد مخازن اللحوم بداخل المحل؛ لأرى والدي وسط ذلك الدُّوَار الذي أصابني وهو يستلّ سكينًا ضخمًا لاحقًا بها إلى الداخل مغلقًا الباب وراءه؛ لترتفع صرخاتها أكثر وأكثر حتى صمتَت تمامًا.

حاولت التحامل على نفسي والاقتراب من الحجرة، ولكني لم أستطع؛ فتهاوَيْت على احد المقاعد وأنا ألهَث محاولًا سدّ الجرح ببعض من قطع القطن التي يحتفظ بها والدي للطوارئ بالمحل، والتي كانت قريبة مني لحسن الحظ.

ومن الإرهاق والتعب ذهبتُ في النوم لوقتٍ لم أعرف مقداره حتى استيقظتُ على يد والدي وهو يوقظني ويضمّد جرحي؛ فسألته في ضعفٍ عن عمتي ليقول لي أنها بخير وفي شقتها.

ثم نهض واتّجَه لذلك المخزن ليُخرِج منه عدة أجولة تمتلئ باللحوم مع جوال يمتلئ بالعظم مع مجيء رجاله ليأمرهم بتعليق اللحوم للبيع وإلقاء العظام للكلاب الضالة.

وتتسع عيناي رعبًا.. تُرَى هل..؟! أمِنَ الممكن أن يكون والدي قد فعَل هذا؟!

نظر لي أبي هنا فارتجَفت.. رأيته يشير إليّ أن أتقدم وأجلس بجانبه..

تقدّمتُ وارتجافتي تتزايد وجلستُ بجانبه وأنا أتطلع إلى ذلك اللحم المعلّق في ذعر متزايد.

وأدهشني هدوء والدي الشديد وأنا أراه يتحدّث مع رجاله وزبائنه في وِدٍّ ومرح، وأيضًا يداعبني في هدوء ويتباسَط معي بالحديث كأن لم يحدث شيء، حتى شجّعنِي هذا على أن أسأله مرة أخرى عن عمتي وأين هي؟

بمجرد سؤالي توقّف عن الكلام دفعة واحدة وعيناه تزوغان لحظيًا، قبل أن تظهر على وجهه ابتسامة متردّدة وهو يقول لي ألّا أخاف؛ فهي على ما يرام، إلّا أنها قد قرّرَت الرحيل وقد اشترى منها نصيبها في المنزل وسترحل قريبًا.

اندهشتُ من كلامه وقلت له:

– هل إذا صعدتُ إليها الآن سأجدها؟

فنهرني في عصبية قائلًا لي:

– إياك أن تفعل، لقد انقطعَت علاقتنا بتلك السيدة نهائيًا، سترحل قريبًا وهذا أفضل للجميع، وعليك أن تعتبرها رحلَت منذ الآن.

تأكدتُ حينها من كَذِب والدي ومن صدق إحساسي.. لقد ذبح والدي شقيقته وقطع لحمها، وهو الآن يبيعه للزبائن!

أخذت أرتجف وأنا أتطلّع إلى الزبائن الذين أقبلوا على ذلك اللحم الجديد يشترون منه، وشعرت بالرعب والاشمئزاز معًا يغمرانني، حتى أنني كدتُ أُفرِغ معدتي عدة مرات، وطلبتُ من أبي مرارًا أن يتركني أصعد، لكنه رفض.

وازداد شعور الغثيان لديّ؛ فطلبتُ منه أن أذهب للحمام؛ فقال لي أن أذهب للحمّام الملحق بالمحل.

فذهبتُ إليه وهناك قمت بإفراغ معدتي في الحوض الموجود هناك، قبل أن أعتدل لأراها تنظر إليّ من خلال المرآة! كانت هي.. عمتي.. القتيلة!

.....

لم أشعر بنفسي إلا وأنا أصرخ برعب ثم أسقط مغشيًا عليّ، ولم أفِق إلا على سريري ووالدي ووالدتي ينظران لِي والقلق في عيونهما، ووالدي يقول: حمدًا لله على سلامتي، بينما كانت والدتي تحتضنني في لوعة.. وأخذتُ أصرخ بأني رأيتها.

وعندما سألوني مَن؟! انعقد لساني من الرعب ولم أستطع النطق.

وهنا أتى الطبيب الذي استدعَاه ليناظر حالتي، وبعد الكشف عليّ أعطاني حقنة مهدئة، وطلب منهما تركي للاستراحة قليلًا.

وبالفعل تركاني وذهبتُ في النوم، وصحوتُ على صوت خطوات بالمنزل!

نهضتُ مفزوعًا وأنا أنادي على أبي وأمي، ولكن لم يردّ أحد عليّ!

وكانت الخطوات البطيئة مستمرة خارج الغرفة.. وانتفض قلبي بين جنبي.

كانت الخطوات تشبه خطوات عمّتي بطرقعة ذلك (الشبشب) الذي ترتديه دومًا، وخطواتها تقترب من غرفتي.

حبستُ أنفاسي رعبًا وأنا أستمع إلى تلك الخطوات.. حتى انتفضتُ رعبًا مع سماع صوتها! صوتُ عمتي!

كانت تنادي تارةً على أبي وتارة على أمي.. حتى بدأت تناديني!

صرختُ بشدة وأنا أنهض من السرير وألتصِقُ بالحائط فزعًا.. وتوقفَت الخطوات لحظة ثم عادت مرة أخري، وكانت هذه المرة تقترب من غرفتي!

وأخذَت الخطوات تقترب.. حتى توقفت أمام الباب ورأيته يُفتح ببطء بصَرِير رهيب!

وعلى الإضاءة الخافتة القادمة من الخارج رأيتُها!

إنها هي.. عمتي.. أو بمعنى أدق شبحها!

.....

تجمدَت الدماء في عروقي وأنا أنظر إلى ذلك الشبح.. لقد كان منظرها فظيعًا.. بالرغم من الإضاءة الخافتة كنت أستطيع رؤية

جسدها الضخم وعينيها الغائرتين وشفتيها الزرقاء، وتلك الدماء التي تسيل من أماكن عديدة من وجهها وجسدها.. ولقد وقفَت تنظر لي قليلًا، قبل أن تقول لي بصوت متحشرج:

– لماذا تصرخ يا حبيبي؟! لا تخف.. أنا هنا بجانبك، لقد جئتُ من أجلك!

وأخذت تتقدّم ناحيتي ببطء.. وهنا لم أستطع التحمل وسقطتُ مغشيًا عليّ مرة أخرى.

.....

لا أستطيع معرفة ما حدث بعد ذلك.. لم أعلم أين أخذتني عمتي! فعندما استيقظتُ، وربما لم أستيقظ! لا أعلم بالضبط.. كنت أرى خيالات وأشباح كثيرة أغلبها يرتدي الأبيض، وهي تدور وتلف حولي.

وأسمع أصواتًا متداخلة لا أميّز منها حرفًا، وأرى وجوهًا كثيرة لا أميّز منها ألا.. وجهها!

نعم لقد كانت دائمة الظهور لي بوجهها المرعب المخيف، وأنا لا أستطيع الفرار منها.. ولا أعلم أين أخذتني! ولا أين ذهب الجميع! لكن تلك الأشباح لا تتركني أبدًا.. و...

إنهم يهجمون عليّ الآن.. يحاصرونني.. سيأخذونني معهم.. أنجدوني.. افعلوا شيئًا.. إنهم.....

.....

"حسنًا لقد فهمنا كل شيء الآن"

نطق دكتور حسين بهذه العبارة في هدوء وهو يجلس بمكتبه أمام مساعده دكتور حسام، الذي ابتسم وهو يقول:

– نعم يا سيدي؛ فلقد حيّرَتنا هذه الحالة كثيرًا منذ أتى إلى المصحة منذ ما يقرب من عشرة أعوام وكان طفلًا صغيرًا يعاني من ذهول تام وهلاوس سمعية وبصرية.

قال دكتور حسين:

– بالضبط.

ثم أردف وهو ينهض متجهًا إلى النافذة ناظرًا منها:

– لقد أتى به أبَوَاه وهو يعاني من تلك الحالة، ولم يستطع أحدهما إعطاءَنا معلومات كافية عن ما حدث برغم محاولاتنا معهما، ولكننا فهمنا الآن.. وفهمنا أيضًا لماذا كان يصرخ كلّما رأى معهم تلك السيدة.

قال حسام:

– أتقصد عمته؟

قال دكتور حسين:

– نعم.. من الواضح أنه قد توقّع موتها على يدِ أبيه؛ مما أثار فزعه ظهورها المفاجئ له من الغرفة المجاورة، والتي كان قد وضعها بها والده بعد إغماءها إثر ضربه المبرح لها، وبالطبع كانت لم تُشفَ بعدُ من آثار الضرب؛ مما أدى إلى هذه الحالة التي أصابت الطفل ولازمته حتى الآن، ولقد قمتُ اليوم باستجواب والده وواجهته بتلك الأوراق التي كتبها؛ ليعترف لي أخيرًا بما حدث، وبأنه يومها قام بضرب شقيقته ثم حملها بصعوبة ليضعها في غرفة في شقته، ثم هبط وقام بتوزيع اللحم الجاهز للبيع، والذي ظنه ابنه أنه لحم عمته، ويبدو أن هذا هو ما أدى إلى ذلك التخيل الذي جعلَه يسقط مغشيًا عليه في الحمّام؛ ليحمله والده ويضعه في غرفته التي تجاور الغرفة الراقدة بها عمته،

ثم هبط ليرى بعض أموره بينما زوجته بالخارج، ولكن يبدو أن استيقاظ العمة ودخولها على الطفل الذي ظنها شبحًا هو الذي أدى إلى تلك الحالة التي أصيب بها من حينها.

ليقول حسام مبتسمًا:

– ولكن فكرة عبقرية أن تضع تلك الأوراق أمام ذلك المريض؛ مما أدى إلى كتابته تلك الرسالة أخيرًا لنعرف منها جميع ما حدث.

ابتسم دكتور حسين قائلًا:

– ربما الصدفة وحدها هي من قادتنا لاكتشاف الحقيقة، فقَد نسيتُ تلك الأوراق هناك بالصدفة في آخر جلسة لي معه.

قال حسام:

– بالفعل، ولقد أثبتنا مرة أخرى أنه لا يوجد أشباح، وأن كل من يرى أشباحًا إما يتخيلون أو مرضى نفسيون.

واتسعت ابتسامة الاثنين.

.....

وهناك.. في غرفته..

كان الطفل -الذي أصبح شابًا الآن- راقدًا في سريره مرتعبًا وهو يرى باب حجرته يُفتَح ببطءٍ شديد ليرى مع ظلامها وإضاءة الخارج الضعيفة شبحَ تلك السيدة ضخمة الجسد ذات العينين الغائرة والشفاه الزرقاء والدماء التي تلطّخ ملامحها وهي تنظر له قائلة بابتسامة مخيفة:

– لقد أتيتُ مرة أخرى.. أوحشْتَنِي يا صغيري!

لتتردد صرخته المرتعبة في أرجاء المستشفى جميعها.